الحضارة القديمة في العالم الجديد

« مصر » القارة الاميركية

كتابتها — علمها — مبانيها — نقوشها — تاريخها

لقد اطلق الكتاب على بلاد المايا في غواتيمالا باميركا المتوسطة وما يجاورها من البلدان كيوكاتان وجنوب المكسيك وسلفادور وهندوراس لقب « مصر » القارة الاميركية لما عثر عليه العلماء من وجوه الشبه بين عمارة المايا وكتابتهم وعمارة المصريين وكتابتهم. وازداد هذا اللقب تمكناً وتأيداً لما ثبت للباحثين ان حضارة المايا هي اقدم الحضارات الاميركية الراقية ومصدر الثقافة التي امتدت عناصرها الى البلدان المجاورة ولان اتصالها اعلام تقاس بها مراحل الحضارات الاميركية القديمة وتؤرخ كملات المصريين القدماء ومدافنهم

واذا نظرنا الى الاحوال التي نشأت فيها امة « المايا » وجدنا ان منشآتها العمرانية تضاهي اوفى المنشآت العمرانية في ارقى الامم القديمة . فاقليم البلاد التي نشأت فيها حارٌّ يضعف القوى ويخمد النشاط وهو في الوقت نفسه يؤاتي الزرع مما جعل الزراعة هناك نزاعاً دائماً بين الانسان والطبيعة في غاباتها وحراجها الغضة التي كانت تخصب الارض وجودة الاقليم تسطو على المناطق التي يزرعها الانسان وتكسوها . ومع ذلك نشأ في تلك البلاد وفي ذلك الاقليم حضارة راقية من ارقى الحضارات القديمة مع انها لم تتصل — على ما نعلم — بالعالم القديم

وشعب المايا هو الشعب الوحيد الذي استنبط في اميركا طريقة للكتابة واستعملها في تدوين مدوناته وهذه الطريقة الكتابية الهيروغليفية تحسب اعظم مآتي اميركا العقلية في العصور الغابرة. اما العلماء فلم يفوزوا حتى الآن بحلّ كلّ هذه الرموز الهيروغليفية ولكنهم عزوا فيها حلوه منها على اركان التاريخ « المايا » واصول تقويمهم وعلومهم الفلكية والرياضية . وقد تكون الباقي منها منطوياً على وصف الحوادث العظيمة التي حدثت لهم اما الرموز نفسها فرسوم للاشياء او للافكار فيها ظلٌّ من الاثر الصوتي ولكن ليس لها البتة

اما تاريخ هذه الكتابة ومنشئها فتتغلغل في القدم تحيط به سحب الريبة والخرافة . ولم

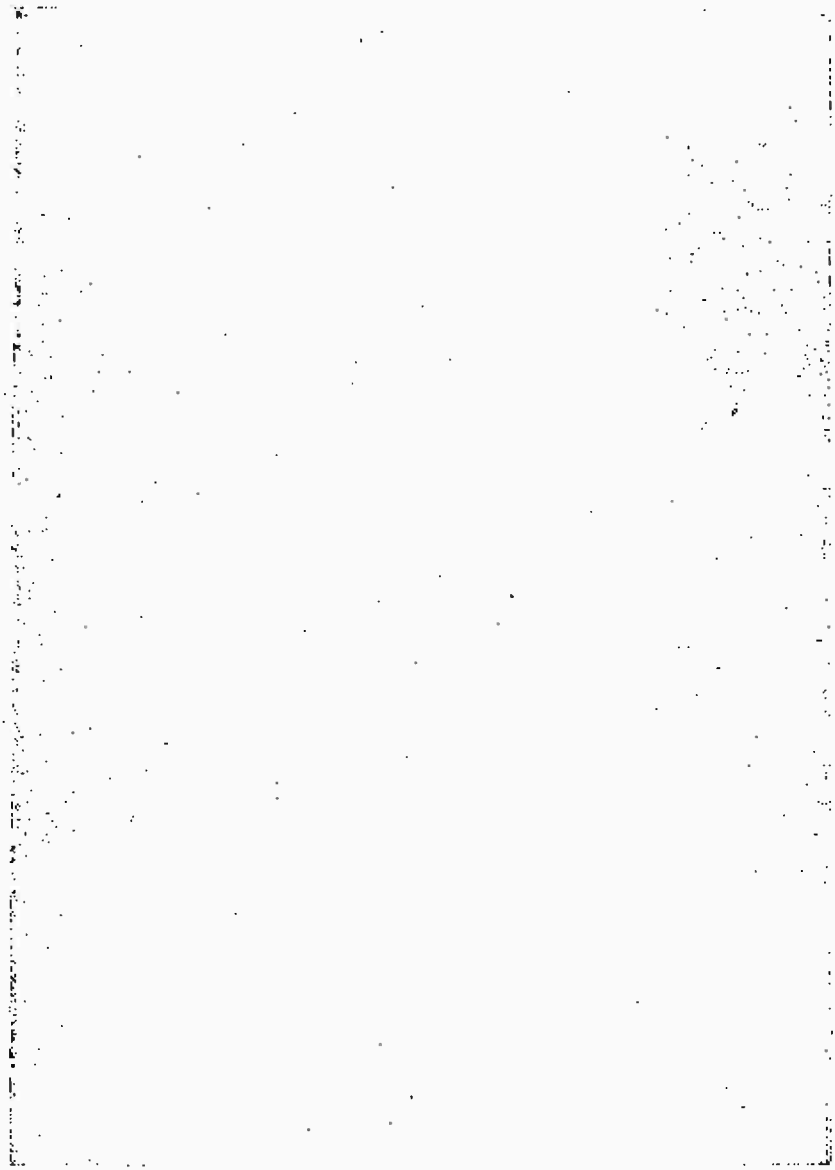

السم الهيروغيني في كوبن

رسم خيالي لهذا السم الذي عثر الباحثون على أقاصيه

يعثر حتى الآن على اثر يحتوي على اسم المستنبط او تاريخ الاستنباط او غير ذلك من دقائق الموضوع . ومع ان اقدم المدوّنات المؤرخة يرجع تاريخها الى سنة ٩٦ قبل المسيح نجد في آثار الاتقان البادية في الاشارات الهيروغليفية دليلاً مقنعاً على انها ليست بنت ساعتها وان قروناً انقضت عليها قبلما بلغت هذه الدرجة في الاتقان . وما في هذه الاشارات من الخطوط المنحنية يدل على انها كانت ترسم على سطح مستوٍ ملس قبل استنباط فن النحت في الحجر الذي مكّن اصحابها بعدئذٍ من نقشها في الحجر الصلب لحفظها مقاومة لاياب الدهر

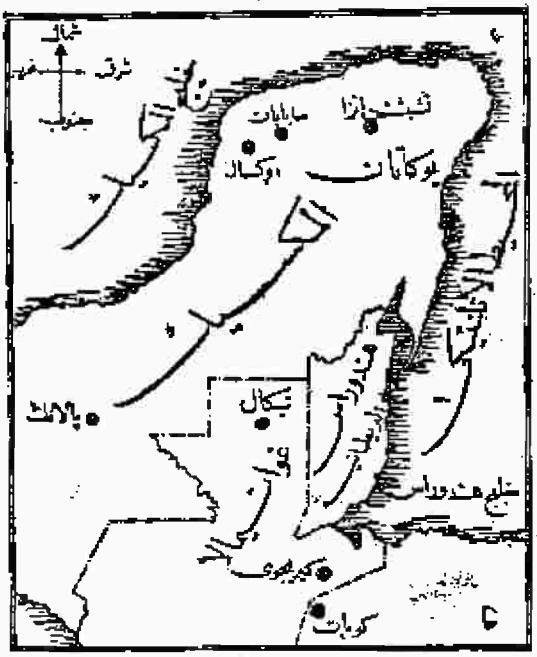

خريطة البلاد التي نشأت فيها حضارة « المايا » وازدهرت

وعلاوة على هذه الكتابات المنقوشة في الصخور كان لشعب « المايا » كتب مكتوبة بالطريقة الهيروغليفية . وقد تلف منها معظم الكتب التي كانت تحتوي على كل علوم المايا وحكمهم اتلفها الاسبان حين افتتحوا البلاد وحكموها . فقد كتب مطران لَندا يقول : ولقد جمعت اربعة آلاف من هذه الكتب والتصاوير الشريرة وحرقتها كلها في الميدان العام ببلدة تيكال رغم حزن الوطنيين وبكائهم . على ان الوطنيين في حزنهم وبكائهم على فقد هذه الكنوز العقلية الثمينة لا يبلغون شأو العلماء في هذا العصر الذي لا يرون بين ايديهم الا ثلاثة من هذه الكتب يحاولون ان يستخرجوا منها اصول حضارة المايا وما آثرها

والكتب الثلاثة التي لم تعبث بها ايدي الاسبان محفوظة الآن في خزائن اوربا وهي في الغالب تدور على جداول فلكية ورياضية وبعض التهاويل السحرية . والظاهر ان احتفاظ هذه المعارف في طبقة كهنة « المايا » كان الباعث على اتلاف الكتب التي دونت فيها لان الكهنة الاسبان كانوا ينظرون الى كهنة المايا نظرهم الى الشياطين فحملوا القواد على الفتك بهم واتلاف كتبهم

معارفهم الفلكية والرياضية

وقبلما نلمّ بتاريخ « المايا » لننظر نظرة عجلى في معارفهم الفلكية والرياضية لان الباحثين مجمعون على ان عملهم في هذه الناحية من نواحي الثقافة لا يفوقه عمل اية امة اخرى في اقليم كاقليمهم وبيئة كبيئتهم . فهو كاستنباطهم للكتابة الهيروغليفية اعظم ما آتى العقلية في اميركا القديمة

﴿ التقويم ﴾ كل تقويم يجب ان يبنى على قياس دقيق لطول السنة. وهذا القياس عمل صعب ان لم يكن متعذراً في امة لا تملك ادوات فلكية دقيقة . فالسنة على ما نعلم يتعذر تقسيمها الى عدد كامل من الايام والشهور لانها مؤلفة من ٣٦٥ر٢٤٢٢ يوماً او ١٢ شهراً قريباً و٣٧ في المائة من الشهر كلٌّ منها مؤلف من ٢٩ يوماً و٥٣ في المائة من اليوم . وهذه الكسور في الايام والشهور كانت ولا تزال العقبة الكأداء في سبيل واضعي التقاويم على اختلافها. فالسنة حسب التقويم اليولياني الذي كان مستعملاً في جنوب اوربا الى سنة ١٥٣٢ وفي شمال اوربا الى سنة ١٧٠٠ وفي روسيا الى بعد الحرب كانت اطول من السنة الحقيقية ١٢ دقيقة فكانت النتيجة انهُ لما عزمت روسيا ان تجري على التقويم الجريجوري كان الخطأ في اليولياني قد بلغ نحو اسبوعين. على ان امة « المايا » تمكنت من غير ادوات الرصد ان تضع تقويماً من نحو التي سنة لا يبلغ الخطأ فيه اكثر من يوم في ٢١٤٨ سنة . اما التقويم الذي تجري عليه اليوم فلا يفوق تقويم المايا كثيراً . فالخطأ فيه يبلغ يوماً واحداً في ٣٣٢٣ سنة . كذلك تمكن علماء المايا ان يضعوا تقويماً قريباً لا يزيد فيه الخطأ عن يوم واحد في ٣٠٠ سنة

﴿ علم الهيئة ﴾ وعلاوة على ذلك تمكن رصّد « المايا » من ان يعرفوا مدى دوران الزهرة والمرجح انهم قرروا مدى دوران المريخ ويحتمل انهم عرفوا مدى دورة المشتري وزحل وعطارد . وبنوا على دورة الزهرة تقويماً كانوا يستعملونهُ في ضبط التقويم الشمسي والتقويم القمري . فقد كانوا يعرفون مثلاً ان ثماني سنوات شمسية تعادل تقريباً خمس سنوات من سني الزهرة وان ٦٥ سنة من سني الزهرة تعادل مائة سنة واربع سنوات من سني الشمس . وكانوا يستعملون التقاويم الثلاثة لتقدير ازمنة طويلة وقد وُجد ما يدل على انهم تنبأوا بحدوث حوادث فلكية تمتد الى اكثر من ٣٤ الف سنة . وكانوا يتنبأون بالكسوف

﴿ الصفر ﴾ اما الجداول الرياضية التي وضعوها فكان يلزم لها قبل وضعها استنباط فكرة « الصفر » وهذا الاستنباط من مفاخر حضارة « المايا » . فالصفر امر تعودناهُ في الجداول الحسابية الآن حتى اصبحنا نراهُ غير ذي خطر تقول عنهُ انهُ رمز للعدم. ولكن لولا هذا الرمز لتعذر القيام بالعمليات الحسابية قياماً سريعاً ولما تمهدت الطريقة للحساب العشري ولظلت العلوم الرياضية حبيسة ذيولها على الارض . فالصفر هو الذي مكّننا من ترتيب الارقام حتى يكون لكل رقم منها قيمة خاصة بحسب الرتبة التي يكون فيها . ومع ذلك لم يستنبط الصفر الاّ في القرن السادس او السابع بعد المسيح استنبطهُ الهنود ونقلهُ العرب الى اوربا فانتشر في بلدانها. على ان امة المايا استنبطتهُ على حدة قبلما استنبطهُ الهنود بالف سنة

ادوار تاريخهم

اما وقد المنا بشيء من مآتي المايا الحسية فلنتجه الآن الى تاريخهم : واول ما يجب ذكرهُ في هذا الصدد ان الاثريين الاميركيين لا يعترفون بوجود علاقة ما بين شعب المايا وشعوب العالم القديم. فالفروق الكبيرة في الجنس واللغة واركان الثقافة تفوق وجوه الشبه السطحي في قيمتها. فالمايا كانوا لغة ودماً من هنود اميركا وحضارتهم اميركية خالصة

﴿ جاهليتهم ﴾ اما اصل المايا فموضوع لا طيل الوقوف عليهِ لانهُ لا يهمنا الآن سواء هجروا الى اميركا الوسطى من الشمال او من الجنوب او من الغرب او نشأوا ونموا في البلاد التي ازدهرت فيها حضارتهم. والمرجح ان سيرهم على طريق العمران بدأ الوفاً من السنين قبل المسيح حين تمكنوا هم او على ما يرجح حين تمكن سكان مرتفعات المكسيك المجاورة لهم من تدجين نوع من العشب المكسيكي البري فاستنبطوا منهُ الذرة . فلما علم الناس اصول الزراعة استقرّت حياتهم ورفهت معيشتهم واتسعت امامهم ساعات الراحة والفراغ وزاد عدد السكان فتمكنوا من العناية باعمال الحضارة واتقانها . وبعدما استنبطوا الذرة تمكنوا من ان يضيفوا الى حاصلاتهم الزراعية الفاصولياء والكوسى والفلفل والقطن والتبغ والكاكاو والاناناس ثم دجنوا النحل وبعد ذلك استنبطوا صناعة الخزف

ومعرفة العلماء بتاريخ المايا من نشأته الى قاعة العصر المسيحي مبنية على الظن اكثر من بنائها على التحقيق العلمي الراسخ . ولكن الحضارة العالية التي ازدهرت في القرون التي تلت ولادة المسيح تقتضي نشوءاً بطيئاً سابقاً لها مستغرقاً قروناً كثيرة ففي هذه المدة السابقة لازدهار الحضارة استنبطت الرموز الهيروغليفية ووضعت اصول الفنون المختلفة ورصدت الاجرام السموية ارصاداً بنيت عليها فيما بعد التقاويم المختلفة

﴿ الامبراطورية القديمة ﴾ ويصحُّ ان يقال ان تاريخ المايا يبدأ سنة ١٧٦ بعد المسيح وهو التاريخ المدوّن لأول كلام خرافيّ . اما عهد الامبراطورية القديمة فاستمرَّ الى سنة ٦٠٠ بعد المسيح وتاريخهُ مبني في الأكثر على التواريخ المنقوشة في الانصاب الحجرية . وهو منقسم الى ثلاثة اقسام الأول يمتدُّ الى سنة ٣٥٧ ب . م . والمتوسط الى سنة ٤٥٥ ب.م والثالث وهو عصر الازدهار او العصر الذهبي الى سنة ٦٠٠ ب.م. وفي هذه الحقبة بنى ابناء هذا الشعب النشيط عشرات من المدن العظيمة ومئات من القرى الصغيرة

وأقدم المدن العظيمة التي شادوها مدينة تيكال في غواتيمالا حيث شاد « المايا » اعلى بناء شيد في اميركا الوسطى في العصور الغابرة فبلغ علوهُ مع هرمه ١٧٥ قدماً . اما مدينة

كوبان في شمال هندوراس فكانت على ما يرجح اعظم المدن في عهد الامبراطورية القديمة . فالسلم الهيروغليفي العظيم (انظر الصورة) كان قبلما دمّره زلزال شديد اثاب تلك البلاد من اعظم اعمال البناء التي قام بها سكان اميركا الاصليون . فقد كان مؤلفاً من تسعين درجة عرض كل منها ١٢٥ قدماً وعمقها ٢٥ قدماً وكانت وجوه هذه الدرجات كلها وما اقيم على جانبيها من الانصاب مغطاة بالنقوش الهيروغليفية يتألف منها كتابة فيها ٢٥٠٠ رمز والمرجح ان هذا السلّم بني سنة ٥٠٠ ق . م. والعمارة في سائر مدن المايا على نمط العمارة في كوبان . فكانت اكثر المباني مجتمعة حول مركز المدينة ومرتفعة على تلال من التراب كأنّ كلاً منها الأكروبليس في اثينا . على ان المباني بوجهٍ عام ضخمة ساذجة وخالية من اي اثر عظيم للفن. والمرجح ان دوافع التعبير الفني في نفوس المايا ظهرت آثارها فيما نقشوهُ من الانصاب والمذابح والتماثيل لتزيين مبانيهم بها

اما المدينة التي تمثل حضارة العصر المتوسط من الامبراطورية القديمة فهي مدينة بالانك وهي اطلال مشهورة الآن في جنوب المكسيك . في هذه المنطقة لم يجد حذقة الصنّاع حجراً موافقاً للنقش والحفر فاستعملوا نوعاً من المصيص الجيري الكثير في تلك المنطقة. وفي القوالب التي اخرجوها بلغوا غايات بعيدة من الدقة والجمال. فالنقوش البارزة في بالانك التي افرغت على هذه الطريقة هي من اروع الآثار الفنية التي خلفوها

وبلغ المايا ذروة حضارتهم حوالي سنة ٥٢٠ ق . م . وفاقوا بذلك اعلى مابلغتهُ حضارة التوتونيين في اوربا في ذلك العصر . وقد عثر الاثريون حتى الآن على اطلال سبع عشرة مدينة في الاكام المنتشرة في شمال غواتيمالا والبلاد التي تجاورها . ومما لاريب فيهِ ان العلوم والفنون كانت مزدهرة ومستوى معيشة السكان عالياً . واعظم مدينة نشأت حينئذٍ كانت مدينة كيريجوى بغواتيمالا . ففي اطلالها عثر على اكبر آثار المايا الفنية وابدعها. والانصاب التي وجدت فيها ممتازة بحجمها وبراعة جمالها ويستدل منها ان نصباً منها كان يقام كل خمس سنوات والقصد منهُ ان يكون جزءاً من تقويم عام خالد على الدهور

﴿ الامبراطورية الجديدة ﴾ ولسبب ما لم يكتشفهُ الباحثون اخذت مدن غواتيمالا تقفر من اهلها حوالي سنة ٦٠٠ ب .م. ويسند بعض العلماء ذلك الى تفشي الحمى الصفراء ويقول آخرون ان حرباً اهلية طاحنة نشبت بين طوائف السكان فبادوا فيها ويقول غيرهم ان تغيراً فجائياً في الاقليم والتربة جعل البلاد جدباء لا تكفي لاخراج القوت الكافي

وعلى كلٍّ لم يعثر الباحثون على آثار مدينة من مدنهم ظلت مأهولة بعد مطلع القرن السابع المسيحي. وتاريخ القرون الثلاثة التالية محجّب بحُجُب الجهل والراجح ان شعب المايا

رأس حجري منقوش في دور ديكل
ببوكاتان يكاد يكون مماثلا على وجه

عمود من الحجر الجيري على الطريق
في مدينة الأشك ببوكاتان

الدور العلوي لمعبد في سايبل ببوكاتان
وعمارته مثل حسن على عمارة شعب المايا في دور الامبراطورية

منتطف دسمبر ١٩٢٩

أمام صفحة ٤٩٧

كان في فترة تحول وانتقال . ولكن لما انتصف القرن العاشر المسيحي كانت آثار حضارتهم قد انتقلت شمالاً الى يوكاتان فجددوها هناك وظلت زاهية زاهرة الى اواسط القرن الخامس عشر . فنشأت في يوكاتان مدن جديدة أروع جمالاً وابدع فناً وبناء من مدن غواتيمالا وهندوراس . ومما امتازت به حضارة « الامبراطورية الجديدة » عن الحضارة مع ان ميزة « الامبراطورية القديمة » كان فن النقش

وأشهر المدن الفخمة التي نشأت مايابان وأوكمال وتشيتشن ايتزا . نشأت المدينتان الأوليان في القرن العاشر م. ولكن الثالثة اقدم منهما والمرجح أن الناس نزلوا فيها اولاً في القرن السادس فهي اقدم مدن اميركا الآن . وكانت هذه المدن الثلاث في مطلع القرن الحادي عشر مراكز ثلاث قبائل كبيرة كلٌّ منها يحكم عليها طبقة من الأشراف فاتفق هؤلاء على التحالف فيما بينهم وتأليف حكومة عامة تدير شؤون المدن الثلاث فظلت هذه الحكومة المشتركة قرنين متواليين فبسط الأمن رواقهُ في عهدها وعمَّ الرخاء وازدهرت الفنون وبنيت الهياكل والاهرامات وغيرها من المباني العظيمة . هذا العصر في تاريخ المايا (١٠٠٠ — ١٢٠٠ ب.م.) معروف بالعصر الذهبي الجديد . اما الآن فانك لا تقع حيث كانت مدينة مايابان الا على آكام مهجورة وأطلال خربة . وأما اطلال تشتشن ايتزا وأوكمال فترتفع بما فيها الحجرية فوق اشجار الأدغال التي سطت عليها . واليها اتجه العلماء والسيّاح اولاً . فهي احرى الآثار الأميركية بالزيارة والدرس

﴿ الحرب الاهلية ﴾ وسبب هذا الخراب ان عقارب الغيرة دبّت في صدور الاشراف الحاكمين في هذه المدن الثلاث حوالي سنة ١١٩٠ بعد ما قضوا نحو قرنين يؤيدون الحكومة العامة التي مهدت السبيل لعصر الذهبي الجديد فنشبت بينهم حرب اهلية طاحنة . والظاهر ان الحرب شبت أولاً بين مدينتي مايابان وتشتشن ايتزا فعمد اشراف مايابان الى عمل غيّر وجه حضارة المايا . ذلك انهم استجدوا بقبائل التولتك في وادي المكسيك الى الشمال الغربي منهم . وهذه القبائل كانت على جانب عظيم من الحضارة والراجح ان انبساط نفوذ التولتك في شمال يوكاتان هو الذي اثار غيرة المايا في الجنوب فكانت السبب الحقيقي في نشوب الحرب الاهلية . ولكن مهما يكن الأمر فان ممثل تشيتشن ايتزا في الحكومة العامة دسّ ضدّ زميله ممثل مايابان فنشبت الحرب الأهلية واستعان اشراف مايابان بجنود التولتك على اشراف تشيتشن ايتزا وفتحوها عنوة . وكانت هذه الحرب فاتحة لسيطرة دولة التولتك في يوكاتان التي دامت الى اواسط القرن الخامس عشر

على ان مدينة اكمال بقيت ملتزمة جانب الحياد مترفعة عن خوض معامع النزاع بين

المدينتين ولم تأخذ بفنون التولتك واسلوب عمارتهم كما فعلت مايابان الا في بناء ساحة الرقص. واما مدينة تشيتشن ايتزا فشيدت فيها المباني الفخمة على الاسلوب التولتكي والاسلوب المتأثر به.

ولما بلغت القائمون بدولة التولتك ان اصبحوا متجبرين مستبدين بالرعية فاندفع الوطنيون في اواسط القرن الخامس عشر الى رفع علم الثورة عليهم بزعامة مدينة اكسمال فذبحوا كل ابناء الاسرة الحاكمة في مايابان ودمروا المدينة فلم يبق منها اليوم الا كوم من الحجارة مائلة على قمم الآكام. وكان سقوط مايابان نهاية حضارة المايا. والظاهر ان البلاد مزقتها بعد ذلك حرب اهلية طاحنة فهجرت مدينتا اكسمال وتشيتشن ايتزا ولم تبن مدن اخرى تقوم مقامهما. وفشا الجوع والمرض وجاءت على اثر ذلك طليعة الفاتحين الاسبان.

اما اليوم فهود المايا يقطنون شبه جزيرة يوكاتان وجواتيمالا ويقدر عددهم بثلاثمائة الف. وهم جنس راق من صنوف اميركا اقوياء الاجسام اذكياء العقول في نفوسهم شعلة الاستقلال وفي عزائمهم الاجتهاد وحب العمل وفي عاداتهم النظافة من الادران. واكثرهم لا يتكلم الا لسان المايا على ان اصحاب المزارع منها يتكلمون اللغة الاسبانية كذلك. وقد كان انقراض الاشراف والكهنة وحرق كتبهم مؤذناً بضياع معالم حكمتهم وعلمهم وصناعتهم ونسيان آثارها فلم يبق الا اطلال فخمة في الادغال تحدث بعظمتهم الماضية وعزمهم الغابر

صورة ترسيم «هيكل الخرزة» في مدينة تشيتشن ايتزا